

أسطورة الأمزونات الليبية بين الاستمرارية المشوهة في الأستغرافيا العربية بالفترة القروسطية والدلالة التاريخية للنص.

د. يوسف خليفة مسعود الناكوع

محاضر بقسم الآثار والسياحة - جامعة غريان

البريد الإلكتروني/ywsfalnakw8@gmail.com

ملخص البحث

تُعد الأساطير بمثابة تاريخ أولي، أو قصصاً مشوهة لأحداث تاريخية، أو حتى سجلات تاريخية تم تداولها في مجتمعاتٍ لم تهتدِ للكتابة بعد، وبالتالي فهي قد تحمل بين ثناياها إشاراتٍ تاريخية تؤكد على حقيقة لا يمكن تجاهلها بالمطلق. إن صدى الأساطير والروايات المتناقلة لا يمكن إيقافها بالانتقال من عصرٍ تاريخي إلي آخر، بل قد يستمر صداها متداولاً دون تدوينٍ حتى، فالشاعر اليوناني هوميروس الذي عاش في حوالي القرن التاسع قبل الميلاد . حسب رواية هيرودوت . وصلتنا عنه ملحمتان شعريتان هما "الألياذة والأوديسا"، وهما وفقاً لاعتقاد الكثير من المؤرخين لم يتم تدوينهما في زمن الشاعر، بل تأخر إلي حوالي عام 530ق.م، وبالتحديد في عهد الحاكم بيزيستراتوس، وصلتنا قبل ذلك تتناقلهما الأجيال المتعاقبة شفويًا، وعن طريق المنشدين لهما وفي المحافل العامة، والحفلات الرسمية، والدينية.

وعليه لا يمكن تجاهل تأثير الروايات العربية الوسيطية بالأساطير القديمة التي سُجّلت بالمنطقة، بدليل حديث القزويني عن مدينة جزيرة ببحر المغرب يحاكي فيها أسطورة الأمزونات لدى ديودورس الصقلي، فرود أسطورة الأمزونات في المعطيات العربية للعصر الإسلامي دليلٌ ربما على استحالة فصل الروايات العربية في العصور الوسطى عن تلك اللاتينية التي دونت في العصور القديمة، والتي كانت قد سادت مناطق الشمال الأفريقي قبل وصول أولى طلائع الفتح الإسلامي للمنطقة.

إن تلك الروايات ذات الطابع الأسطوري التي تتحدث عن مزولة النساء للحكم، أو المشاركة في بعض الأحداث التي لها علاقة بهذا الجانب لا يجب أن تُدرج ضمن الخيال المنعزل عن الواقع، لأن العديد من المعطيات توحى بدورٍ كبير كان للمرأة في هد المجال.

إن إقحام المصادر العربية الوسيطية في كتابة التاريخ القديم لشمال إفريقيا بشكلٍ عام وليبيا على وجه الخصوص يضل موضوعٌ جديرٌ بالاهتمام رغم خصوصية المرحلة التاريخية، فكتابة القديم من خلال الوسيط قد يمس تلك الخصوصية، لكن ما يدفعنا إلي العمل في هذا الجانب هو الاعتقاد الجازم لدينا بصلاحية الأستغرافيا العربية الوسيطية للكشف على بعض الجوانب في تاريخ المنطقة، وأن تهميش هذه الوثيقة يندرج ضمن الإهمال المتعمد من قبل بعض المستشرقين لهذه الوثيق التي أحدثت جدلاً واسعاً فيما يتعلق بأصول الساكنة، وهجراتهم الأولى.

Research Summary

Myths are primary history, distorted stories of historical events, or even historical records that have been circulated in societies that have not yet been prepared for writing, and therefore they may carry within them historical references that confirm a fact that cannot be completely ignored.

The echo of legends and tales transmitted cannot be stopped by moving from one historical era to another. Rather, it may continue to resonate circulating without even codification. The Greek poet Homer, who lived around the ninth century BC, according to Herodotus' narration, has two epic poems about him, "The Iliad and the Odyssey", According to the belief of many historians, they were not recorded at the time of the poet, but rather delayed until about the year 530 BC, specifically during the reign of the ruler Bezistratus, and before that they were passed on by successive generations orally, and through their vocalists, in public forums, and official and religious ceremonies.

Accordingly, it is not possible to ignore the influence of the medieval Arab narratives on the ancient myths recorded in the region, as evidenced by Al-Qazwini's hadith about a city on an island in the Sea of Morocco, in which he simulates the legend of the Amazons in Diodorus Sicilian. The Latin codified in antiquity, which had prevailed in the North African regions before the arrival of the first pioneers of the Islamic conquest of the region.

Those narratives of a mythical nature that talk about women practicing government, or participating in some events related to this aspect, should not be included within the fantasy isolated from reality, because many data suggest a great role for women in this field.

The involvement of Medieval Arab sources in writing the ancient history of North Africa in general and Libya in particular remains an interesting topic despite the peculiarity of the historical stage. Medieval Arabic to reveal some aspects of the history of the region, and that the marginalization of this document falls within the deliberate neglect by some orientalist of this document, which caused widespread controversy regarding the origins of the population, and their first migrations.

researcher

مقدمة:

تعد الأساطير بمثابة تاريخ أولي لشعوبٍ رددتها عبر الزمن، أو قصصٍ مشوهةٍ لأحداثٍ تاريخيةٍ، أو سجلاتٍ تم تداولها في مجتمعاتٍ لم تهتدي للكتابة بعد.

إن البحث في ماهية الأسطورة وعلاقتها بالتاريخ يقود إلي النظر في الفارق بين طبيعتها والتاريخ، فطبيعة التأريخ "السعي لإدراك الماضي"، في حين تتناول الأسطورة أحداثاً جرت في الأزمنة القديمة_ أو يُعتقد حدوثها في تلك الأزمنة_ ربما سبقت التسجيل الكتابي، بل وحتى ظهور التجمعات السكنية، وهنا يتفق الاثنين في الهدف، وهو الماضي، إلا أن الخلاف بينهما يبرز مع الانتقال إلي دراسة القوى الفاعلة التي أسهمت في تشكيل وبلورة الأحداث الماضية، التي تستحوذ على اهتمامهما المشترك، فالتاريخ يتعامل مع البشر على اختلاف مستوياتهم، بينما أبطال

الأسطورة هم الآلهة، وأنصاف الآلهة من البشر، وعلى صعيداً آخر تتميز الأحداث التي يتعامل معها التأريخ بواقعتها، وذلك بفعل خضوعها لمختلف أساليب التدقيق والنقد، والتأريخ لا يقبل منها إلا ما ثبتت صحته وعدالة روايته حسب أحكام العقل وقواعد العلم، وأخيراً يسعى إلي ربط الحقائق المضبوطة بعضها ببعض لكي يستخرج منها صورة للماضي، وإن لم تكن صادقة كل الصدق، فهي أقرب ما يمكن إلي ذلك، أما أحداث الأسطورة، فهي عرضة للتضخيم والبعد عن الواقع، ولا يتم ذلك غالباً بدافع التضليل، وإنما نتيجة تضافر عدة عوامل، أبرزها العامل الاجتماعي، الاقتصادي، الذهني، الروحي، السياسي، الأيدلوجية، وحتى الديني.

إن التطور الذي عرفه منهج الكتابة التاريخية_ باعتماده كل ما يدل على ماضي الإنسانية وثيقة تاريخية_ قد فرض علينا أن نغير اهتمامنا لوثيقة أغفلتها_ على ما يبدو_ كل الدراسات التي تناولت تاريخ ليبيا القديم، وهي (أسطورة جزيرة النساء لدى القزويني ت682هـ /1283م)، وعلاقتها بأسطورة الأمازونات لدى ديودورس الصقلي.

إن الرغبة في استنطاق بعض النصوص الأسطورية سواءً كانت الكلاسيكية، أو تلك التابعة للعربية في الفترة القروسطية، نابع من الاهتمام الذي حظيت به مثيلاتها في الأبحاث التاريخية في مناطق أخرى من الشمال الأفريقي، ومساهماتها في الكشف عن جوانب تاريخية مهمة في بعض المناطق، كتلك الدراسة التي قدمتها الباحثة خديجة قمش بعنوان: (الأساطير وتاريخ شمال إفريقيا القديم).

صحيح أن تاريخ ليبيا القديم يجب دراسته من خلال المصادر القديمة، وإن اقحام مصادر الفترة الوسيطية من شأنها أن تمس خصوصية الفترة القديمة، لكن ما قد يبرر اعتمادنا عليها هو أن الروايات والأساطير القديمة لها علاقة بالذاكرة الجماعية التي لا يمكنها أن تُبتر أو تُغير بمجرد تغير المعتقدات مع الدين الجديد (الإسلام)، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، هي محاولة منا لتبيان الاستمرارية المشوهة للمعطيات الأسطورية القديمة في المصادر العربية الوسيطية، التي لم يطلع - على ما يبدو - مؤلفوها على المصادر القديمة اغريقية كانت ام لاتينية، كتلك الأسطورة التي نتحدث عن الأمازونات لدى ديودورس الصقلي، وهنا جانب آخر حفزنا على أن نبحت في هذا الموضوع، قصد الوقوف على أهمية المصادر العربية الوسيطية للتأريخ لدول الشمال الإفريقي

وخاصة تاريخ ليبيا القديم، وهذا سيجعل القارئ يتسأل كما تسألنا نحن بدورنا قبله، إلي أي حد يمكن للمصادر العربية الوسيطية أن تساهم في كتابة التاريخ الليبي القديم؟ وهل تكرر أسطورة الأمزونات وتردها عبر العصور القديمة مروراً بالعصور الوسطى الإسلامية دليلاً على دور محتمل للمرأة وحضور قوي عبر الزمن؟

أهداف البحث:

من المعروف أنه في عصر ازدهار الحضارة العربية، صاغ علماء الأمة مجالات البحث والتأليف في سبعة أهداف وهي: استخراج ما لم يسبق استخراجها، أو ناقص يستكمل ناقصه، أو خطأ يتم إصلاحه، أو غامض أو موزج لا تتم فائدته إلا بشرحه وتبسيطه، أو طويلاً يبدد الذهن يختصر من غير إخلال ولا حذف يفقده معناه وغرضه، أو أن يكون متفرقاً يجمع شتاته، أو مبتوراً غير مرتب يتم ترتيبه.

وبالتالي فإننا نتطلع إلي السبق فيما يتعلق بموضوع البحث، من خلال جمع شتات النصوص المتفرقة بين صفحات الكتب المصدرية، والمراجع، في محاولة لاستتطاق ما يخدم البحث، ولا ندعي هنا أن الهدف هو إصدار الأحكام وتقييم المعلومات التاريخية، بل من أجل توفير معطيات جديدة للمهتمين بالعصور الكلاسيكية المرتبطة بإفريقيا الشمالية عامة، وليبيا خاصة، ما قد يساعد في ملء الفراغات التي تشوب تاريخ ليبيا القديم.

واعتباراً لكل ذلك، فإن من بين أهداف البحث، محاولة تحديد علاقة الأستغرافيا العربية الوسيطية، بمصادر العصور القديمة ومعرفة الأصول القديمة لبعض المعطيات العربية الوسيطية، وتبيان الدلالة التاريخية للنص.

وبما أن المؤرخ يحاول دائماً رصد الأحداث والوقائع من خلال البحث في الوثائق والمصادر، فإنني لا أعتزم من خلال هذه الدراسة تقديم إجابات نهائية عن الأسئلة السالف ذكرها، لأن ذلك يتجاوز مهمة المؤرخ، وتضل محاولتي هذه مجرد خطوة لا يمكن التنبؤ مسبقاً بنتائجها، لكنني مع ذلك حاولت قدر الإمكان كسر ذلك الصمت الرهيب الذي يلف تلك المرحلة الانتقالية بين القديم والوسيط لشمال إفريقيا عامة، وليبيا الحالية على وجه الخصوص.

منهج الدراسة:

لقد تم اعتماد المنهج التاريخي الذي يقوم على قراءة النصوص وتحليل مضامينها وتأويله.

أولاً. أسطورة وأساطير، وحدة في الجذر، أم اختلاف في المفاهيم:

يرى البعض أنه ثمة فرق بين لفظتي (أسطورة وأساطير)، فلا هذه مفردة لتلك، ولا تلك جمع لهذه، ما يرجح لديهم أجنبية لفظة أسطورة¹، فمن أين جاءت إذاً؟ يعتقد البعض أن أسطورة لفظة أخذت عن اللغة السريانية، التي جاء فيها "Serto" و "Souro"، بمعنى سطر، في حين يرى آخرون بأن الكلمة تنحدر من اسم الإلهة "عشتار" الأكادية البابلية، حيث حُرِف الاسم في اللغات القديمة إلى "استار" و "اسطار"، وصار في العربية أسطورة، غير أن الراجح لدى القائلين بأجنيبتها أنها مُعربة عن الإغريقية من كلمة Istoriya، كما يقابلها في اللاتينية Historia، التي تعني فيها الكتب أو الكتابات التاريخية، إذ أخذت -على رأي هؤلاء - من الروم زمن الجاهلية واستُخدمت للمعنى ذاته.²

إن المتأمل في ما ورد في معاجم اللغة العربية، يجد أن للكلمة معنيين الأول الكتابة والأسطر، أو الصفوف والتصنيف، والثاني الأباطيل والمؤلفات التي لا أصل لها³ حيث جاء في معجم مختار الصحاح، باب السين، فصل الطاء عن الأساطير والأسطورة ما يلي: "س ط ر - (السَّطْر) الصَّف مِنَ الشَّيْءِ يُقَالُ بَنَى سَطْرًا وَعَرَسَ سَطْرًا. و(السَّطْر) أيضا الخطُّ والكتابة، وهو في الأصل مصدر وبابه نَصَرَ و(سَطْرًا) أيضا بفتحتيْن والجَمْعُ (أَسْطَار) كَسَبَبِ وَأَسْبَابِ وَجَمْعُ الجَمْعِ (أَسَاطِير). وَجَمْعُ السَّطْرِ (أَسْطُر) و(سُطُور) كَأَفْلُسٍ وَفُلُوسٍ. و(الأساطير) الأباطيل الواحد (أسطورة) بالضم و(إِسْطَارَة) بالكسر، وأَسْطَرَّ كَتَبَ مِثْلَ سَطَّر."⁴

إن المفهوم المرادف في اللغات الأجنبية لمصطلح أسطورة، يأتي على هيئة "Mythe" في الفرنسية، للإشارة إلى قصة قديمة يكون موضوعها الآلهة، والكائنات فوق البشرية، وربما تَخْلُق الكون وانبعثت موضوعها أيضاً، وهو بالضبط ما تعنيه Myth الإنجليزية، وكلاهما رديفتا " Fable " خرافة، أو " Fallacy " مغالطة أو فكرة خاطئة.⁵

لكن بالنظر إلي ما ورد في إحدى الدراسات، يتبين أن كلمة (ميثوس)، قد جاءت في أقدم الوثائق الإغريقية، لتعني (الحقيقة معبر عنها بأقوال)، وما استبدال هذا المعنى، في وقت لاحق -بمعانٍ

أخرى كالزيف، الخرافة، الأباطيل، والوهم- في اللغات الأوربية الحديثة- إلا نتيجة لرسوخ تلك المعاني لدى الإغريق قبل سواهم، فطبيعة الميثولوجيا الإغريقية، وقوة الصراع الذي قادته النزعة العقلانية- في ذلك الوقت- هو الذي وسم هذه اللفظة بمعاني الزيف والوهم.⁶

إن اقتصار المصادر العربية بالفترة القروسطية، على استخدام لفظة أساطير في صيغة الجمع، وافتقارها تماماً لذكر الكلمة على هيئة الأفراد (أسطورة) يدفع إلي التسليم- ربما- بالفكرة القائلة بأعجمية الأخيرة (أي الأسطورة)، وإن أساطير بعيدة كل البعد من حيث المعنى عن أسطورة، فأساطير جاءت بمعنى كتابات، وجذرها سطر.

قد يلقي هذا الطرح قبولاً بعض الشيء خصوصاً إذا ما تم النظر فيما جاء به ابن كثير الدمشقي في كتابه (تفسير القرآن العظيم)، حين فسر كل آيات القرآن الكريم- التي جاءت على ذكر مصطلح أسطورة بصيغة الجمع دون الأفراد، وفي تركيب بعينه وهو "أساطير الأولين"- تفسيراً يتمحور حول معنى بعينه وهو (كتابات السابقين)، وليس خرافاتهم وأباطيلهم كما نعتقد نحن على الأقل، ففي قوله تعالى: " .. حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"⁷، قال الدمشقي وتفسير ذلك: " أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذاً من كتب الأوائل ومنقول عنهم"⁸ وكذلك الأمر بالنسبة لقوله تعالى " وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"⁹ فقد فسره الدمشقي: " أساطير الأولين " وهو جمع أسطورة أي كُتُبهم اقتبسها فهو يتعلم منهم ويبتلوا على الناس"¹⁰ وفي تفسيره لقول الله تعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"¹¹ فقد ذكر " أي لم ينزل شيئاً إنما هذا الذي يُتلى علينا أساطير الأولين أي مأخوذ من كتب المتقدمين"¹²، وفي الآية ثلاثة وثمانون من صورة المؤمنون يقول الله تعالى " لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"¹³، يقول: " إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين"¹⁴، وفي الآية الخامسة من سورة الفرقان، " وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا"¹⁵، ذكر بأن المعنى هو " كتب الأوائل استنسخها"¹⁶، إلا أن ما جاء به ابن كثير الدمشقي، في تفسيره للآية الثامنة والستين، من سورة النمل، " لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"¹⁷، جاء بما يثبت أن الأساطير قد تعني الروايات الغير مسندة للحقائق، وذلك فيما قال: " أي اخذه قوم عن قبلهم من

كتب يتلقاها بعض عن بعض وليس له حقيقة¹⁸، وتجاوز تفسير أساطير الأولين الواردة في الآية السابعة عشر من سورة الأحقاف، _ " وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْمَا أْتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَنْغِيئَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ "19 - واكتفى بتفسير ما قبلها بالنص²⁰، وفي الآية الخامسة عشر من سورة القلم " إِذَا تُلْتَمَسُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ "21، يقول معنى النص " كذب مأخوذ من اساطير الأولين "22، وفي قوله تعالى: " إِذَا تُلْتَمَسُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ "23 يقول بن كثير في تفسير ذلك: " أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به ويظن به ظن السوء فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل "24.

وأياً كان الرسم الذي ظهرت به الكلمة في المصادر العربية الوسيطية، جمعاً كانت أم إفراد، فهي إن دلت على شيء _ في الوقت الراهن _ فقد دلت من حيث الاصطلاح على الكلام الذي لا أصل له والغريب البعيد عن الحقيقة والواقع الممتلئ بالخيال والأوهام العقلية ربما. إن التباين والتنوع الحاصل في مفهوم الأسطورة من حيث الاصطلاح يرجع إلى اختلاف وطبيعة وجهات النظر بين كل: مؤرخ، باحث، وناقد، فهذا جعلها تفسيراً للطبيعة بل للكون، وذلك يرى بأنها تفسير شعائر الدين وقواعد العادات، وهناك من قال بأنها حكايات تولدت في المراحل الأولى للتاريخ، أبطالها أسطوريين خارقين وآلهة، موضوعها تفسير الظواهر المختلفة، وآخر يرى فيها بحث روائي لحقيقة أزلية تروي رغبات عميقة، وحاجات اخلاقية واحتياجات علمية²⁵.

ثانياً. الأمزونات، قدرات خارقة، وأجساد كالرجال:

1. المرأة الكاهنة:

لم تكون المرأة وقدراتها الخارقة- في مناطق الشمال الإفريقي _ غائبة عن صفحات الكتابات والاساطير القديمة، إذ تؤكد بعض النصوص القديمة على مزاوله النساء بشمال إفريقيا للعرافة واستطلاع الغيب حيث يشار إلى أن أم الملك النوميدي ماسينيسا (238 ق.م - 148 ق.م) قد تنبأت له بمستقبل عظيم مع الرومان²⁶.

وفي السياق ذاته، أكد بروكوبيوس (Procopius) على أن قدرة استطلاع الغيب كان من اختصاص النساء وحدهن في شمال إفريقيا، وأن الرجال لا يقومون بذلك²⁷ وهو ما يتفق تقريباً مع

ما جاءت به المصادر العربية الوسيطية، حول ملكة جبال الأوراس حين نعتتها بلقب الملكة الكاهنة، واصفة إياها بأنها "أعلم أهل زمانها بالكهانة"²⁸، غير أن الكهانة لم تكن وحدها في المنطقة، فهناك أيضا السحر، الذي استخدم من قبل الليبيين القدماء في إنزال المطر، وعلاج بعض الأمراض، كعضات الأفاعي، فضلا عن استخدامه في إثبات النسب (نسبة الطفل لأبيه) في إطار الخيانة الزوجية من عدمها²⁹.

لقد تحدث المؤرخين العرب في العصر الإسلامي، عن وجود ظاهرة السحر بالمنطقة، فهي هو المسعودي يخبر عن قوم تفسى فيهم السحر لدرجة أن ولوا عليهم امرأة ساحرة فيقول: «وبلغه [أي ملك مصر] أن قوما من البربر والسحرة لهم تماثيل وبخورات عجيبة يضلون بها وتخابيل وهم في مدينة يقال لها قرمودة في المغرب من أرض مصر، وقد ملكوا عليهم امرأة ساحرة يقال لها سطا»³⁰، وبعيدا عن الكهانة والسحر أليس في النصوص القديمة ما يشير إلى دور محتمل للمرأة في المنطقة؟ وإن صح ذلك فهل الكتاب العرب في العصر الإسلامي على إدراك بهذا الدور؟

في الواقع، إن تلك الإشارات الواردة في النصوص العربية الوسيطية، والمتعلقة بنساء قائدات للجيش ومالكات للقبائل، تذكر ربما بأساطير الأمازونات، الوارد ذكرها في المصادر القديمة، تلك الأساطير التي تحدثت عن مجتمع نسوي تتولى فيه المرأة قيادة الجيوش والقتال بدلاً من الرجال، وقد تحدث ديودورس الصقلي بشيء من التفصيل عن ذلك، واصفا جرأتهن في القتال، وامتلاكهن لزام الأمور في مجتمعاتهن قائلا: «كان في ليبيا عدداً من أصناف النساء على قدر كبير من الجرأة، تثير شدتهن الرجولية عظيم الإعجاب»³¹ مضيفاً: «وكان هذا الشعب [شعب الأمازونات] يتبع سبيلا في الحياة يختلف عما يسود حياتنا من سبل، فقد كان من عرفهم أن تقوم النساء بمهام الحرب، ويطلبن للخدمة العسكرية لفترة معينة، أعني الفترة التي يحتفظن فيها بعذريتهن، ثم يمضين إلى الرجال - حينما تنقص سنو خدمتهن في الجيش - من أجل إنجاب الأطفال، لكنهن يظللن ممسكات بزام الحكم وأمور الدولة في أيديهن، وكان الرجال مثلهم في ذلك، مثل نساءنا المتزوجات، يمضون حياتهم في البيت [...]»³².

2. نساء من دون أئداء:

إذا ما سلّم بأن الأسطورة هي بمثابة تاريخ أولي، أو قصصاً مشوهة لأحداث تاريخية، أو حتى سجلات تاريخية تم تداولها في مجتمعات لم تهتدي للكتابة آنذاك³³، فإن تلك الروايات تحمل في طياتها إشاراتٍ تاريخية تدل على تبوأ المرأة في ليبيا القديمة للمناصب القيادية منذ عصور موغلة في القدم، بعد أن ظلت علاقة المرأة بأنظمة الحكم غامضة بعض الشيء، فجاءت الأساطير بمختلف عهودها لتميط اللثام عن المكانة المميزة للمرأة في تلك المجتمعات³⁴، مكانة ربما ألمحت إليها رسوم الفن الصخري من قبل، ذلك الفن الذي يعود إلى عصور ما قبل وقُبل التاريخ في المنطقة، حين أظهر العديد من صور النساء اللاتي يحملن الأسلحة الحربية، منذ أقدم مراحل هذا الفن، إلا أن المثير في كثير من تلك الصور، هو عدم وضوح أئداء تلك المحاربات، ما دفع بالبعض إلى الاعتقاد بأنهن محاربات من الرجال ولسن نساء محاربات³⁵، وفي ذلك دليلاً صريحاً على ما ذهب إليه ديودورس الصقلي، عند تفسير لكلمة (أمازونات) حين ذكر: «وإذا ما حدث وولدت أنثى، فإن ثدييها يجفان بالكي حتى لا ينموان عندما تصل سن البلوغ، فقد كانت الأمازونات يعتقدن أن الأئداء تشكل عائقاً كبيراً في أثناء القتال حين تبرز من الجسم، والحق أن هذا هو السبب الذي جعل اليونان يطلقون عليهم هذا الاسم (الأمازونات) الذي يعني (المنزوعات الثديي)³⁶.

إن ما ذهب إليه ديودورس - وهو الأصل - يتعارض مع تفسير خديجة قمش، عندما ذكرت بأن لفظة أمازونات هو تحريفاً لكلمة الأمازيغيات³⁷، معللة ذلك بقولها: "لأن الإغريق هم الذين دونوا هذه الأساطير أول الأمر، فإنهم دونوه [تقصد الاسم] حسب طريقة نطقهم له"³⁸، مدللة على ذلك بما قاله بلينيوس فذكرت: «وربما يجد هذا الرأي مشروعته في اعتراف بلينيوس بصعوبة نطق أسماء بلاد الأمازيغ لغير الناطقين بها»³⁹.

وأياً كان التفسير الصحيح لأصل التسمية، فإن ظاهرة الأمازونات تدل على حضور قوي للمرأة في المنطقة عبر التاريخ، ويعزز هذا الطرح، ظهور النساء بزي الرجال في النقوش الفرعونية، وخصوصاً تلك التي تعود بتاريخها إلى عهد الفرعون ساحورع (Sahure) (2473-2487 ق.م) ثاني ملوك الأسرة الخامسة (2560 - 2420 ق.م)⁴⁰، ناهيك عن وجود لوحة جدارية بأحد المعابد المصرية، صورت عليها ملكة ليبية قديمة، بجانب ملوك آخرين أرخ لها بحوالي 1200 ق.م⁴¹.

ثالثاً. الأمزونات في الكتابات العربية الوسيطية:

1. استمرارية تداول النص ودلالاته:

إن حديث المسعودي عن الساحرة سطا - في النص المشار إليه سالفاً - لا يدعو أن يكون سوى أصداء لأساطير سابقة تم تداولها عبر الأجيال، فالساحرة سطا ربما هي ذاتها أسبتي لدى سيلبوس الإيطالي حين تحدث عن محاربة دعاها بهذا الاسم، وزعم بأنها شاركت في معارك القرطاجيون، تولت خلالها قيادة فرقة مكونة من مقاتلات يركبن العربات التي تجرها الخيول⁴²، وقد يجد هذا الرأي قبولا نوعا ما إذا ما قيس باجتهادات علي فهمي خشيم حين قارب بين اسم أسبتي أو أسبوتي، وبين القبيلة الليبية سبت (sbt) الواردة في النصوص المصرية القديمة⁴³، ومع ذلك تظل سبتا (Seite) - التي وصفها الروايات اليهودية كحاكمة للجنوب المغربي (مناطق ورزوات)⁴⁴ - هي الأقرب من حيث اللفظ لسطا، غير أنه لا يمكن الجزم بهذا الاسم أو ذلك، في ظل نقص الأدلة الدامغة لهذه الاحتمالات، لكن الشيء الذي لا يمكن تجاهله هو تأثير الروايات العربية الوسيطية، بالأساطير القديمة التي نُسجت حول المنطقة، بدليل حديث القزويني عن مدينة بجزيرة ببحر المغرب يحاكي فيها أسطورة الأمازونات لدى ديودورس الصقلي قائلا: «أهلها نساء لا حكم للرجال عليهن، يركبن الخيول، ويباشرن الحرب بأنفسهن، ولهن بأس شديد عند اللقاء [...]، فإذا وضعت إحداهن ذكراً قتلته في الحال، وإذا وضعت أنثى تركتها»⁴⁵.

إن تلك الروايات ذات الطابع الأسطوري التي تحدثت عن مزاوله النساء للحكم أو المشاركة في بعض الأحداث التي لها علاقة بهذا الجانب لا يجب أن تدرج ضمن الخيال المنعزل عن الواقع، لأن العديد من المعطيات توحى بدور كبير كان للمرأة في هذا المجال⁴⁶.

صحيح أن الأسطورة قد بالغت عندما جعلت تسيير المجتمع في يد النساء وحدهن، لكن في المقابل لا يمكن تجريدها من أي حقيقة تاريخية، فملكة الأوراس حقيقة لاشك فيها، ولا يمكن للمرأة أن تصل إلى ذلك المستوى لولا وجود أرضية تاريخية جعلت هذا الأمر مقبولا في مجتمعات الشمال الإفريقي⁴⁷.

2. اتقان المعتقد وتوظيفه:

إن وصف الكتاب العرب في العصر الإسلامي لمكلة جبال الأوراس بالملكة الكاهنة، إشارة صريحة على ادعائها معرفة الأسرار أو أحوال الغيب، غير أن خديجة قمش لا ترى في ذلك سوى غلافٍ أسطوري تُسج حول شخصية الملكة⁴⁸، متجاهلة عن قصد أو بدون قصد الارتباط الحاصل بين مفهوم البركة وديانة الليبيين القدماء، ذلك الارتباط الذي أشار إليه الشاعر اللاتيني كوريبوس (Corippus) عند حديثه عن الحرب الليبية البيزنطية، منوهاً إلى أن المكانة التي حصل عليها الزعيم الليبي أنتالاس (Antalas) كان بسبب النبوءة التي التمسها والده من الإله أمون، والتي جاء فيها أن ابنه سيكون القائد الذي سيوحد القبائل الليبية، وبذلك حصل على بركة الإله، وكذلك الحال بالنسبة للشيخ جيرنا (Jerna) زعيم قبيلة لواتة حين حصل على البركة بتوليته منصب الكاهن الأعظم للإله الليبي قورزل (Gurzil)، الأمر الذي مكّنه من قيادة اتحاد القبائل الليبية في حربها ضد البيزنطيين الغزاة، كما أن خليفته كركسان (Carcasan) حصل على نبوءة من الإله أمون بأنه سيدخل قرطاج منتصراً، الأمر الذي ساعده على توحيد القبائل الليبية⁴⁹.

إن استخدام الدين كوسيلة لإضفاء الشرعية - لأي سلطة حاكمة - هي عادة شعوب الأرض منذ أقدم العصور، فعندما يعجز الحاكم عن إقناع شعبه بأحقّيته في ذلك، يلجأ إلى إيهامه بأنه صاحب معجزات أو مفوض من الآلهة، والشواهد على ذلك كثيرة، فأسماء فراعنة مصر وألقابهم مثلاً، كثيراً ما اقترنت بأسماء وألقاب الآلهة⁵⁰. وعليه، فإن استخدام الكهانة أو السحر لا يخرج عن إطار البحث عن الشرعية، وبمعنى أكثر وضوحاً، فإن قيادة امرأة لجموع البربر، وحشدهم لصد الفتح الإسلامي، وتقديرهم لها - حتى قيل لحسان بن النعمان: «ليس بإفريقية أعظم قدراً ولا أبعد صيناً، ولا أشد حزماً من امرأة يقال لها الكاهنة»⁵¹ - لا يأتي من فراغ، فهي إذ تستخدم الكهانة أو التنبؤ استطاعت أن تسيطر على عقول الساكنة في المنطقة، ليس بجبال الأوراس وحدها، بل بإفريقية وأجزاء كبيرة من ليبيا القديمة، بدليل أن سجونها وجدت بمدينة غدامس الليبية، على حد قول الحميري، الذي تحدث في كتابه (الروض المعطار) عن المدينة واصفاً آثارها مبيناً تبعيتها للملكة الكاهنة بقوله: "غدامس في الصحراء على سبعة أيام من جبل نفوسة، وهي مدينة أزلية من قبل الإسلام، وإليها ينسب الجلد الغدامسي، بها دواميس وكهوف كانت سجوناً للملكة الكاهنة التي كانت بإفريقية"⁵².

الخاتمة:

لازلتُ أؤمنُ بأهمية وصلاحيّة الأستغرافيا العربية في الفترة القروسطية لاستقراء جوانب من التاريخ الليبي القديم، فبعد الدراسة التي أنجزتها في هذا المجال، والمعنونة بـ(قراءة في التاريخ القديم لليبيا المعاصرة من خلال المصادر العربية الوسيطية، الساحل الليبي نموذجاً)، وكانت أحد متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ القديم، حاولت من خلال هذا البحث المتواضع أن أثبت أن المُعطيات العربية التي تعود للفترة الوسيطية . حين تناولت التاريخ الليبي القديم . قد وردت على شكل روايات أسطورية، وأن الكثير من تلك الروايات قد يفيد في كتابة بعض قضايا التاريخ القديم لليبيا الحالية، بل ربما مناطق المغرب القديم بصفةٍ عامة.

إن حديث المصادر العربية في العصور الوسطى عن ملكة جبال الأوراس خلال نهاية الفترة القديمة، وعلى أعتاب العصور الوسطى، يبين أن الأساطير القديمة التي تتحدث عن مزاوله المرأة للسلطة ربما وراءها تاريخٌ حقيقي لذاك العُلو، خصوصاً إذا ما تأملنا في شخوص نسائية من الشرق القديم أمثال: (نفيرتيتي، كليوباترا، زنوبيا..).

إن ورود أسطورة الأمزونات في المعطيات العربية للعصر الإسلامي، دليلٌ ربما على استحالة فصل الروايات العربية في العصور الوسطى عن تلك اللاتينية التي دونت في العصور القديمة والتي كانت قد سادة مناطق الشمال الإفريقي قبل وصول أولى طلائع الفتح الإسلامي للمنطقة.

الباحث

أولاً/ المصادر العربية:

1. القرآن الكريم.
2. أبي الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير دمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج2، دار الوليد، طرابلس، الجماهيرية، د.ت.
3. المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي ، أخبار الزمان، ومن إبادة الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء وال عمران، ط3، دار الأندلس، بيروت، 1978م.
4. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تحقيق : إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م
5. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت.

ثانياً/ المراجع:

1. جباله أسامة، ورقاب مروان، علاقة الأسطورة بالدين في العالم القديم _اليونان والرومان أنموذجاً _ مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في التاريخ العام، د.ت، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945م _قائمة_ 2017م.
2. رايح بوترفاس، أسطورة الخلق في ديانات الشرق الأدنى القديم واليهودي- دراسة مقارنة - مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، تخصص: مقارنة الأديان، جامعة الجزائر قسم العلوم الإسلامية قسم العقائد والأديان، 2013م.
3. عبد الحفيظ فضيل الميار، الحضارة الفينيقية في ليبيا، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2001 م، ص 66.
4. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، ط 4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990 م .
5. عبد اللطيف محمود البرغوثي، التاريخ الليبي القديم، من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، ط 1، دار صادر ، بيروت، 1971م.
6. علي فهمي خشيم، نصوص ليبية، المؤسسة العامة للثقافة، ط1، 2009م. 7. خديجة قمش، الأساطير وتاريخ إفريقيا القديم، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، أكادال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، غير منشورة، السنة الجامعية 2003-2004م.
8. محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1988م.

ثالثاً الهوامش

- ¹ رايح بو ترفاس، أسطورة الخلق في ديانات الشرق الأدنى القديم واليهودي- دراسة مقارنة - مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، تخصص: مقارنة الأديان، جامعة الجزائر قسم العلوم الإسلامية قسم العقائد والأديان، 2013م، ص4
- ² المرجع نفسه، ص 2.
- ³ المرجع نفسه، ص3
- ⁴ محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1988م، ص298

- ⁵ رابح بوترفاس، المرجع السابق، ص 6.
- ⁶ رابح بوترفاس، المرجع السابق، ص 7
- ⁷ سورة الأنعام، الآية 25.
- ⁸ الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج2، دار الوليد، طرابلس، الجماهيرية، د.ت، ص 147
- ⁹ سورة الأنفال، الآية 31.
- ¹⁰ الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، المصدر السابق، ج2، ص 347.
- ¹¹ سورة النحل، الآية 24.
- ¹² الحافظ أبي الفداء، المصدر السابق، ج2، ص 638.
- ¹³ سورة المؤمنون، الآية 83.
- ¹⁴ الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، المصدر السابق، ج3، ص 290.
- ¹⁵ سورة الفرقان، الآية 5.
- ¹⁶ الحافظ أبي الفداء، المصدر السابق، ص 355.
- ¹⁷ سورة النمل، الآية 68.
- ¹⁸ الحافظ أبي الفداء، المصدر السابق، ص 425.
- ¹⁹ سورة الأحقاف، الآية 17.
- ²⁰ الحافظ أبي الفداء، المصدر السابق، ص 186.
- ²¹ سورة القلم، الآية 15.
- ²² الحافظ أبي الفداء، ج4، المصدر السابق، ص 480.
- ²³ سورة المطففين، الآية 13.
- ²⁴ الحافظ أبي الفداء، ج4، المصدر السابق، ص 577.
- ²⁵ جبالة أسامة، ورقاب مروان، علاقة الأسطورة بالدين في العالم القديم _ اليونان والرومان أنموذجاً _ مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في التاريخ العام، د.ت، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945م _ قالمة _ 2017م، ص ص 21، 22.
- ²⁶ ينظر خديجة قمش، المرجع السابق، ص 234.
- ²⁷ المرجع نفسه، ص 234.
- ²⁸ الحميري، المصدر السابق، ص 65.
- ²⁹ عبد الحفيظ فضيل الميار، الحضارة الفينيقية في ليبيا، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2001 م، ص 66.
- ³⁰ المسعودي، أخبار الزمان، المصدر السابق، ص 219.
- ³¹ علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص 156.
- ³² المرجع نفسه، ص 15.

- 33 خديجة قمش، المرجع السابق، ص ص 46-49.
- 34 خديجة قمش، المرجع السابق، ص 226.
- 35 المرجع نفسه، ص 215.
- 36 ينظر: علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص 157.
- 37 خديجة قمش، المرجع السابق، ص 214.
- 38 المرجع نفسه، ص 214.
- 39 المرجع نفسه، ص 214.
- 40 عبد اللطيف محمود البرغوثي، المرجع السابق، ص 151.
- 41 خديجة قمش، المرجع السابق، ص 226.
- 42 ينظر: المرجع نفسه، ص 221.
- 43 ينظر: المرجع نفسه، ص 223.
- 44 ينظر: المرجع نفسه، ص 230.
- 45 القزويني، المصدر السابق، ص 607.
- 46 خديجة قمش، المرجع السابق، ص 231.
- 47 المرجع نفسه، ص 226.
- 48 المرجع نفسه، ص 226.
- 49 عبد الحفيظ فضيل الميار، المرجع السابق، ص 89.
- 50 عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، ط 4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990 م، ص 362.
- 51 الحميري، المصدر السابق، ص 65.
- 52 المصدر نفسه، ص 427.